نهضة الأمة

بين القيم الروحية والتقدم المادى

د. جمال فتحى نصار

تقديم

د. سيد دسوقى حسن

مكتبة الشروق الدولية

د. جمال فتحى نصار
نهضة الأمة بين القيم الروحية والتقدم المادى
مكتبة الشروق الدولية

نهضة الأمة

بين القيم الروحية والتقدم المادى

بدأت بوادر نهضة الأمة الإسلامية بالظهور مع بداية تأسيس الحكومة الإسلامية فى المدينة المنورة، ثم أخذت تنمو تدريجيًا فى زمن الخلفاء الراشدين، والدولة الأموية، والدولة العباسية. ثم امتدت هذه الحضارة لتصل إلى القارة الأوروبية؛ حيث منها قامت الحضارة الإسلامية فى الأندلس.

والإسلام كما هو معروف هو الدين الصالح لكل زمان ومكان، وأنه ليس مجرد اعتقاد أعمى، وإنما هو المنهج الكامل المتجدد للحياة، القادر على حل جميع المشكلات المعاصرة على مدى الأزمان . وعلى هذا، فإنه ينبغى اتخاذ الطريقة المناسبة لتغيير وجهة نظر المجتمع المسلم لتعاليم الإسلام فى كافة مجالات الحياة على المستوى الفردى، والأسرى، والاجتماعى، والوطنى.

ويركز مبدأ الإسلام الحضارى على النهضة التى ترمى إلى تشييد الحضارات من خلال تحسين مستوى المعيشة والنهوض بالإنسان روحيًا وماديًا عن طريق التمكن والإلمام بشتى أنواع المعارف والعلوم.

6 223002 001231

نهضة الأمة

بين القيم الروحية والتقدم المادى

بحث مقدم للمؤتمر الدولى الثالث عشر للفلسفة الإسلامية

بعنوان

السنن الإلهية وأثرها فى نهضة الأمة

فى الفترة من (٢٩ ـ ٣ ـ ٤/ ٢٠٠٨م)

د. جمال نصار

مدير المركز الحضارى للدراسات المستقبلية

تقديم

د. سيد دسوقى حسن

مكتبة الشروق الدولية

البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

نصار، جمال.

نهضة الأمة بين القيم الروحية والتقدم المادى : بحث مقدم للمؤتمر الدولى الثالث . . . / جمال نصار؛ تقديم سيد دسوقى حسن.

ط١ . ـ القاهرة : مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩م.

٧٢ ص؛ ١٤ × ٢٠سم.

تدمك 6 - 80 - 6278 -977 - 978

١ - الحضارة الإسلامية. ٢ ـ الحضارة العربية

أ ـ العنوان. ب ـ حسن، سيد دسوقى (مقدم)

٩٥٣

رقم الإيداع ١٦٧٦٤ / ٢٠٠٩م

الترقيم الدولى I.S.B.N. - 978- 977- 6278 - 80 - 6

الفهـرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٧
مقدمة	١١
● **المبحث الأول: النهضة والحضارة المعاصرة**	١٧
* الجذور الفكرية للحضارة الغربية	٢٠
* سمات الفكر الغربى وخصائصه	٢٢
أولاً: الغبش فى معرفة الألوهية	٢٣
ثانيًا: النزعة المادية	٢٥
ثالثًا: النزعة العلمانية	٣٢
رابعًا: الصراع	٣٤
خامسًا: الاستعلاء على الآخرين	٣٧
● **المبحث الثانى: النهضة والحضارة الإسلامية**	٤١
* خصائص الحضارة الإسلامية	٤٣
أولاً: حضارة تقوم على أساس الوحدانية المطلقة فى العقيدة	٤٣

ثانيًا: حضارة إنسانية عالمية متجددة ٤٤
ثالثًا: حضارة يقوم حكمها على الشورى والمساواة وكفالة الحريات السياسية ٤٥
رابعًا: الحضارة الإسلامية تتضمن تنظيمًا شاملاً لأمور الدين والدنيا ٤٧
خامسًا: حضارة تقوم على التكافل الاجتماعى ٥٠
● **المبحث الثالث: المخرج من الواقع الأليم إلى مستقبل مشرق** ٥٣
* لماذا تأخر المسلمون؟ ٥٥
* كيف يستعيد المسلمون مجدهم القديم؟ ٥٩
* الفرد هو أساس النهضة ٦٥
● **المراجع** ٦٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

فى لحظة تاريخية معينة تستطيع قياس روح الإنسان ودرجة تمدينه من الحضارة السائدة فى أمته. فالحضارة هى الإنسان العام روحًا وتمدينًا. والروح تعنى عالم القيم الراسخة فى القلوب والأشواق العامة فى النفوس وتعنى أيضًا عالم الغيب المستقر وراء القيم والأشواق.

وللحضارة دورة معروفة من قديم، تحدث عنها فى القديم ابن خلدون فى مقدمته، وكتب عنها كثيراً مالك بن نبى فى دراساته فى علم النهضة الحديث. والدورة تبدأ دائمًا بارتفاع الطاقة فى عالم

الروح حيث يتكون إنسان الحضارة ويشحن شحنًا عظيمًا يهيئه للانطلاق أو للنهضة من نومه العميق. ثم تأتى من بعد ذلك فترة مستقرة من التمدين حيث تتمخض أشواق الإنسان وجهاده عن تمدين يتمثل فى إنجازات فى عالم المادة. هذه الإنجازات غالبًا ما تلهى الإنسان عن الحفاظ على عالم الروح وما يحتويه من قيم وما وراءها من عوالم غيب فتبدأ مرحلة من الترف سرعات ما تنوط بالإنسان إلى القاع روحًا وتمدينًا.

والحضارة الغربية قد بلغت الأوج فى تمدينها وعقلائها يتنادون أن أقلعوا عن هذا الترف المتمثل فى عبادة الوفرة كما يقول برجنكى فى كتابه الرائع «خارج حدود السيطرة» وغيره من عقلاء الحضارة الغربية المعاصرة.

أما نحن فى عالم المسلمين فما زلنا فى قاع الدورة الحضارية لم نرتحل بعد إلى أعلى سواء فى عالم القيم أو فى عالم التمدين.

والحركة الإسلامية المعاصرة تحاول ما استطاعت أن تحفز الهمم من ناحية وتدرأ عن الأمة مخاطر الاستعمار سواء الثقافية أو التنموية، تحاول ذلك جاهدة فتنجح أحيانًا وتخفق أحيانًا. وهذا الكتاب يحاول فيه أخونا الدكتور جمال نصار أن يتبين مواقع الأقدام

حتى تتقدم عربيته، وهو جهد مخلص نرجو أن يتدافع فى اتجاهه كثير من عقلائنا لأن الأمر فى حاجة إلى بحوث متصلة وجهد فكرى كبير، والله من وراء القصد

د. سيد دسوقى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بدأت بوادر نهضة الأمة الإسلامية بالظهور مع بداية تأسيس الحكومة الإسلامية فى المدينة المنورة، ثم أخذت تنمو تدريجيًا فى زمن الخلفاء الراشدين، والدولة الأموية، والدولة العباسية. ثم امتدت هذه الحضارة لتصل إلى القارة الأوروبية حيث منها قامت الحضارة الإسلامية فى الأندلس.

وبعد سقوط الدولة الإسلامية فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى، أصبح العالم ينظر إلى المجتمع المسلم نظرة ضعف وتخلف. ولا يزال الكثيرون من أبناء الأمة الإسلامية أنفسهم يعتقدون بأن الدين ينحصر فى العبادات فحسب. وبالرغم من أن

هناك وعيًا بأن الإسلام هو طريق الحياة، فإنه بات مجرد شعار، بل إن أغلبية أفراد المجتمع يستصعبون قبول فكرة أن نهضة الأمة، وحضارة الشعب، وبناء الدولة وترسيخ كيانها، تدخل من ضمن الإطار الذى يشمله الدين كما يدعو إليه الإسلام بالفعل.

والإسلام كما هو معروف هو الدين الصالح لكل زمان ومكان؛ أى أنه طريق الحياة بكل ما تشمله الكلمة من معنى، وأنه ليس مجرد اعتقاد أعمى، وإنما هو المنهج الكامل المتجدد للحياة، القادر على حل جميع المشكلات المعاصرة على مدى الأزمان؛ وعلى هذا فإنه ينبغى اتخاذ الطريقة المناسبة لتغيير وجهة نظر المجتمع المسلم لتعاليم الإسلام فى كافة مجالات الحياة على المستوى الفردى، والأسرى والاجتماعى، والوطنى.

ويركز مبدأ الإسلام الحضارى على النهضة التى ترمى إلى تشييد الحضارات من خلال تحسين مستوى المعيشة والنهوض بالإنسان روحيًا وماديًا عن طريق التمكن والإلمام بشتى أنواع المعارف والعلوم.

ولا يعد مبدأ الإسلام الحضارى مذهبًا حديثًا أو دينًا جديدًا، وإنما هو فى حقيقته وسيلة عملية من أجل إعادة الأمة الإسلامية إلى الأسس والمبادئ التى يدعو إليها القرآن والسنة الشريفة التى تعد دعامة الحضارة الإسلامية.

إن تعاليم الإسلام من شأنها المحافظة على حياة الإنسان وكل المخلوقات، وقد ألقى الله سبحانه وتعالى على عاتق الإنسان مسئولية الخلافة فى الأرض. والتطبيق الفعلى لتعاليم الإسلام يضمن سعادة البشر وهناءهم على اختلاف أجناسهم وأديانهم وثقافاتهم، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وإذا عدنا إلى بداية نهضتنا فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى ومطلع القرن العشرين، نجد اضطرابًا واسعًا فى تحديد هويّتنا، وتوصيف واقعنا، وهو أمر غريب ولافت للنظر، لكنه حادث وموجود، فنجد أجوبة متعدّدة على سؤال: من نحن؟ مع أنه يفترض أن يكون هناك جواب واحد، ينطلق من دراسة الواقع وتحليله، فجاءت الأجوبة كالتالى: نحن أمّة فرعونية، نحن أمّة سورية، نحن أمّة عربية، نحن قطعة من أوروبّا، نحن أمّة فينيقيّة، نحن عثمانيّون (نسبة للخلافة العثمانية) إلخ... وكانت معظم الأجوبة إن لم يكن كلها لا تنطلق من الواقع بل تنطلق من نظريات ومقولات غربية.

وللإجابة عن السؤال الذى طرحناه قبل قليل وهو: من نحن؟ فنجد أن الجواب عن هذا السؤال سهل وبسيط هو: نحن أمّة إسلامية، بناها القرآن الكريم والسنّة النبويّة، وعندما نقول ذلك،

ننطلق من واقع الشعب والمجتمع والناس، ولا ننطلق من خيال أو أوهام أو من حُكم سابق على الواقع، أو من نظريات نودّ تعميمها، فالنظر إلى أخلاق الناس المحيطين بنا، وعاداتهم وتقاليدهم، وأساليب تفكيرهم، ومشاعرهم، وعواطفهم، وتطلّعاتهم، وأهدافهم يقودنا إلى وجود وحدة فى كل هذه الأمور مرجعها القرآن الكريم والسنّة المشرفة. . . ، ويمكن أن نرى الارتباط واضحًا بين الوحدة فى كل المجالات السابقة وبين مصادر الوحى الإسلامى، فتوحيد الله صاغ وحدة أفكار المسلمين، وعبادة الله صاغت وحدة نفسيتهم، وأحكام الحلال والحرام صاغت وحدة قيمهم، والخوف من النار ورجاء الجنة صاغ وحدة مشاعرهم، واستهداف العمران فى الدنيا صاغ وحدة تطلعاتهم، والاقتداء بأفعال الرسول - ﷺ - وأقواله صاغ وحدة عاداتهم وتقاليدهم إلخ. . .

إن الخطأ فى فهم الواقع ومعرفة الذات هو الذى جعل النهضة غير ممكنة، ويمكن أن نضرب مثلاً على ذلك بالحكم الذى شاع منذ مطلع القرن العشرين فى معظم الدول العربية، وهو القول: بأن الشعوب الموجودة من المحيط إلى الخليج شكّلت الأمّة العربية، والمقصود أمّة عربية بالمعنى القومى، أى أنها أمّة شكّل عنصرىّ اللغة والتاريخ ثقافتها، وعاداتها وتقاليدها، وأخلاقها، وقيمها،

ومشاعرها ونفسيّتها . . . إلخ، لذلك عندما جاءت الدولة القومية واستهدفت بناء نهضة فى المجالات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والعمرانية، والحضارية، والتربوية، والفنية لم تلتفت إلى دور الدين فى بناء هذا الواقع، بل نظرت إلى الدين على أنه معوّق للتقدّم والبناء، كما كان دوره فى الغرب، لذلك لابدّ من العمل على استئصال وجوده من حياة الناس، وفى أحسن الأحوال لابدّ من تهميش دوره، لهذا لم تتحقّق النهضة، بل كان هناك سقوط فى مختلف المجالات وأحد الأسباب الرئيسة فى ذلك هو عدم الانطلاق من الواقع وعدم تمحيص الهوية وعناصر قيامها.

لذلك يجب أن يكون أول درس نستفيده من التجارب السابقة هو أن نعى واقعنا، ونحترم العوامل التى تشكّله، فهذا هو الأساس الأول للنهضة.

ولا ريب أن النهضة مشروع كبير، لأنها مشروع الأمة، وبالتالى لا يمكن أن يكون حله بالقوة وحدها، ولا بالفكر وحده، ولا بحماس الشباب وحده، ولا بخبرة الكهول وحدها، ولا بالتنظير دون الجهاد، ولا بالجهاد دون التخطيط السليم، ولا بأن نخلط الأولويات، فلا يصح أن نطبق ما يجب فى مواضع ترجح فيها الجهاد ـ مثلا ـ على مواضع هى بحاجة إلى مشروع دعوة وتربية

وإصلاح، كما لا نخلط ما يجب على المسلمين فى بلاد غير المسلمين ـ مثلا ـ من الحفاظ على هويتهم وتعلم دينهم، بما يجب فى فلسطين من الجهاد.

ويجب أن يكون مشروع النهضة منطلقًا من ثلاثة أركان :

الأول: التمسك بالكتاب والسنة، وتقديم هديهما على كل شىء.

الثانى: التخطيط السليم للأهداف، وترتيب الأولويات بشكل صحيح وعدم خلط الأوراق، حتى لا يجهض مشروع النهضة، ويتحول إلى فوضى.

الثالث: مد الجسور والتعاون بين كل الطاقات، وتجنب تشتيت المشروع فى الصراع الداخلى، وهذا لا يمنع من تنقية الصف من المعوقين للمشروع وفضح انحرافهم.

وسنتناول فى الصفحات التالية : النهضة والحضارة المعاصرة وسماتها، والحضارة الإسلامية وخصائصها، والمخرج لما نحن فيه.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل في ميزان الحسنات، وأن يكون لبنة في نهضة الأمة، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المؤلف

المبحث الأول

النهضة والحضارة المعاصرة

لكل حضارة جسم وروح، كالإنسان تمامًا ، فجسم الحضارة يتمثل فى منجزاتها المادية من العمارات والمصانع والآلات ، وكل ما ينبئ عن رفاهية العيش، ومتاع الحياة الدنيا وزينتها.

أما روح الحضارة فهى مجموعة العقائد والمفاهيم، والقيم والآداب، والتقاليد التى تجسد فى سلوك الأفراد والجماعات ، وعلاقاتهم بعضهم ببعض ، ونظرتهم إلى الدين والحياة ، والكون والإنسان ، والفرد والمجتمع .

والحضارات الكبرى التى عرفها تاريخ البشرية تتفاوت فى ما بينها فى موقفها من المادية والروحية، فمنها من يغلب عليه الجانب المادى، ومنها من يغلب عليه الجانب الروحى ، ومنها من يسوده التوازن بينهما.

والحضارة التى تسود عالمنا اليوم هى الحضارة الغربية وهى حضارة لها مزاياها التى لا تنكر ، من ناحية حرية الإنسان وخاصة داخل أوطانها ، وإطلاق حوافزه وطاقاته ، حتى استطاع أن يطوع الطبيعة لخدمته ويفجر الذرة لمصلحته ، وأن يحلق فى الهواء كالطير ويغوص فى البحر كالسمك ، وينطلق فى الأرض كالمارد ، بل ويغزو الفضاء ، ووصل للقمر . . وإلى ثورة البيولوچيا وثورة المعلومات . . كما استطاع أن يصنع ذلك الجهاز العجيب الذى وفر للإنسان وقته ومجهوده الذهنى ، وهو الحاسوب ، أو الحاسب الآلى (الكمبيوتر) ، وإنما فعل ذلك كله بفضل العلم الذى اكتشف قوانينه ، وبرع فى استخدامه وتطبيقاته (التكنولوچية) مع حسن إدارة وروعة تنظيم ، وإحكام رقابة وتوجيه .

وبهذا استطاع الفرد العادى أن يعيش فى مستوى من الرفاهية يحسده عليه ملوك العصور السابقة ، الذين لم يجدوا ما يقاومون به شدة الحر ولا قسوة البرد ، مما يجده الإنسان الآن من أجهزة التكييف ، وآلات التدفئة وما يتيسر له من الأدوات الأتوماتيكية التى تدار أو توقف لمجرد الضغط على زر صغير ، فيضاء الظلام ، أو يطهى الطعام ، أو يسخن البارد ، أو يبرد الحار ، أويقرب البعيد أو ينطق الحديد ، بل من الآلات الآن ما يدار بغير أزرار ، مثل الأبواب والصنابير الإلكترونية وغيرها .

ورغم هذه الإنجازات المادية الضخمة، يقول الواقع إن هذه الحضارات لم تهيئ لأهلها السعادة المنشودة، أو السكينة المرجوة، إنها جسم فيل له روح فأر!

وكما يقول صاحب قصة الحضارة «ول ديورانت» بعد أن يذكر عوامل بناء الحضارة ومن ضمنها العوامل الأخلاقية: «لو انعدمت هذه العوامل بل ربما لو انعدمت واحدة منها لجاز للمدنية أن يتقوض أساسها»[1]

أجل.. إن عيب الحضارة ما يتغلغل فى أعماقها من (المادية النفعية) التى جعلتنا نقول: إنها روح الحياة الغربية، وأساس فلسفتها والطابع العام لها، وجوهر فكرها الذى يميزها، وهو ما ينبغى أن نلقى عليه شعاعًا من الضوء فى هذه الصحائف التى نقدمها.

***

(١) قصة الحضارة ـ ص٧.

الجذور الفكرية للحضارة الغربية

الحضارة الغربية المعاصرة تقوم على ركائز فكرية ممتدة الجذور إلى عهد اليونان والرومان، ولا نستطيع فهم هذه الحضارات فهمًا دقيقًا، ما لم نعرف الفكر الغربى الذى استمدت منه، وقامت عليه، ونعرف مكونات هذا الفكر وخصائصه.

ونعنى بالفكر الغربى: الفكر النظرى الذى يسود الغرب الحديث فى أوروبا وأمريكا، ولسنا نعنى به الفكر العلمى القائم على الملاحظة والتجربة، بل الفكر الفلسفى الذى يحدد نظرة الناس هناك إلى الدين والحياة، وإلى الكون والإنسان، وإلى المعرفة والقيم. فهو يشمل الفلسفة الميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة) إثباتًا وإنكارًا.. والفلسفة الأخلاقية بشتى مدارسها.. والفلسفة الاجتماعية بمختلف مذاهبها وتياراتها وفروعها.

وسواء أكان هذا الفكر ليبراليًا أم اشتراكيًا، رأسماليًا

أم شيوعيًا، فهو فكر غربى واحد فى الأساس والأصول، والسمات والخصائص، وإن اختلفت صوره وفروعه وتميز بعضها عن بعض.

أما الفكر العلمى القائم على المنهج الاستقرائى، فلا اعتراض عليه، بل الواقع أن أصله مقتبس من الحضارة العربية الإسلامية التى ارتكزت عليه، وتفوقت فى استخدامه فى شتى المجالات، واعتبره العلماء المسلمون منهجًا قرآنيًا، وقد شهد المنصفون من علماء الغرب ومؤرخى العلم والحضارة فيهم بأصالة المسلمين فى ذلك، وأخذ الغربيون عنهم، كما فى كتابات (بريفولت) و(جورج سارتون) و (جوستاف لوبون) وغيرهم من الشهود العدول[1]

***

(١) بينات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمتغربين: د. القرضاوى ـ ص ١٥.

سمات الفكر الغربى وخصائصه

هذا الفكر الغربى النظرى فكر خاص له سماته وخصائصه التى ينفرد بها عن فكر الشرق عامة، والشرق العربى والإسلامى خاصة، وهى خصائص عميقة الجذور، لازمته منذ نشأته فى بلاد الإغريق، وانتقاله منها إلى الرومان، حتى انتقل إلى أوروبا المعاصرة، ومن ورائها أمريكا، وأثرت فيه عوامل تاريخية خلال القرون الوسطى تركت بصماتها عليه إلى اليوم، ومن أهم سمات هذا الفكر :

أولا : الغبش فى معرفة الألوهية.

ثانيًا : النزعة المادية.

ثالثًا : النزعة العلمانية.

رابعًا : الصراع.

خامسًا : الاستعلاء على الآخرين.

أولاً: الغبش فى معرفة الألوهية

أول سمات الفكر الغربى: غبش رؤيته لحقيقة الألوهية، فليست رؤية صافية تقدر الله حق قدره، وإنما هى رؤية غائمة مضطربة، تحيط بها الأوهام والجهالات، بل الحق أن الغرب ـ كما ظهر من تاريخه ـ لم يعرف الله ـ جل شأنه ـ معرفة صحيحة، ولم يهتد إلى الإيمان الصحيح بخالق الكون ومدبره، لم يعرف حقيقة الألوهية الكاملة العالمة القادرة المريدة البارة الرحيمة؛ وذلك لأنه لم يعرف النبوة الهادية، والوحى المعصوم معرفة مباشرة فيما علمنا من تاريخه. ومن ثم سار فى الطريق وحده باحثا عن (العلة الأولى) أو (المحرك الأول) أو (واجب الوجود) فتعثر وتخبط، وغلبت عليه الأوهام والأهواء.

حتى الفلاسفة الذين يسميهم تاريخ الفلسفة (الإلهيين) أى الذين اعترفوا بالألوهية فى الجملة، مثل: سقراط وأفلاطون وأرسطو، الذين رفضوا الإنكار والإلحاد، لم يكن تصورهم للألوهية تصوراً صحيحًا، بل كان تصوراً قاصراً مضطربًا مشوبًا بالكثير من الأوهام والتخليطات.

لنأخذ مثلا (إله) أرسطو (المعلم الأول) لدى الإغريق، لنرى أى إله هو ؟ أهو الإله الذى نعرفه نحن، خالق كل شىء ورازق كل حى

ومدبر كل أمر، العالم بما كان وما هو كائن وما سيكون، الفعال لما يريد، والقادر على كل شيء؟ أم هو إله آخر غير هذا الإله الذى نعرفه؟ لنستمع فى ذلك إلى أحد مؤرخى الفلسفة المعاصرين «ول ديورانت» فى «مباهج الفلسفة» : «يتصور أرسطو (الله) بوصفه روحا تعى ذاتها، وهذه هى الأخرى روح غامضة خفية؛ وذلك لأن إله (أرسطو) لا يقوم أبداً بأى عمل، فليست له رغائب ولا إرادة ولا غرض، وفاعليته نقية خالصة، إلى حد تجعله لا يفعل أبداً، وهو كامل كمالاً مطلقًا، لذلك ليس بمقدوره أن يرغب فى أى شيء، ولذلك لا يعمل أى شيء! ووظيفته الوحيدة هى التأمل فى جوهر الأشياء، ونظراً لأنه هو بالذات جوهر جميع الأشياء، وشكل جميع الأشكال، لذلك فإن عمله الوحيد هو التأمل فى ذاته. يالإله أرسطو من إله مسكين ! إنه ملك، لا يحل ولا يربط، فالملك يملك ولكنه لا يحكم !

«ولا غرو أن يحب الإنجليز (أرسطو) فإلهه هو - بوضوح - صورة طبق الأصل عن ملكهم، أو أن ملك هؤلاء هو نسخة عن إله أرسطو بالذات»[1]

وإذا كان إله أرسطو مسكينًا؛ لأنه لا يستطيع أن يحل ولا يربط

(١) مباهج الفلسفة : ص ١٦١ ـ ١٦٢.

فى الكون، فأشد منه إله أفلوطين - الذى تنسب إليه الأفلاطونية الحديثة - فإنه لا يتأمل فى شىء، حتى فى ذاته نفسها!![٥]

ثانيًا: النزعة المادية

من سمات الفكر الغربى: المادية، ونعنى بها تلك النزعة التى تؤمن بالمادة وحدها، وتفسر بها الكون والمعرفة والسلوك، وتنكر الغيبيات، وكل ما وراء الحس، فهى لا تؤمن بإله، ولا برسل له ينزل عليهم الوحى، ولا بروح خالدة لهذا الإنسان، ولا بحياة أخرى بعد هذه الدنيا، ولا بعالم غيبى غير هذا العالم المنظور، ولا بقيم مثالية فوق المنافع واللذات الحاضرة؛ لأن كل هذه الأشياء لا يشهد لها الحس، ولا تهدى إليها الملاحظة والتجربة.

والفكر الغربى فكر مادى، يحتقر الروحيات.. حسى لا يحفل بالمعنويات.. واقعى لا يؤمن بالمثاليات.

وأود أن أنبه أننا نحكم هنا على الغالب والسائد، فلا يحتج علينا محتج بأن فى الغرب روحيين وأخلاقيين ومثاليين، إذ النادر لا حكم له، والأكثر له حكم الكل، كما هو معلوم.

---

(١) الله: عباس محمود العقاد.

وقد غلبت هذه النزعة المادية على الحياة الغربية المعاصرة، سواء منها الجانب النظرى أم الجانب العملى، حتى أصبح معروفًا لدى الدارسين المتعمقين أن ديانة الغرب الحقيقية اليوم هى (المادية).

وربما أنكر هذه الحقيقة أو استغربها الذين ينظرون إلى الأمور من السطح ولا يغوصون إلى الأعماق. إذ المعروف لديهم: أن أمم الغرب فى مجموعها تدين بالمسيحية، وينص كثير من دساتيرها على ذلك، بل على مذهبها من كاثوليكية أو بروتستانتية، وفرنسا تعتبر نفسها حامية الكثلكة فى العالم، وإنجلترا كانت تعد نفسها حامية البروتستانتية، وقد ورثتها فى ذلك الآن الولايات المتحدة الأمريكية.

وفى ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا أحزاب مسيحية كاثوليكية كبيرة، تولى بعضها الحكم أكثر من مرة، وحزب المحافظين البريطانى يجعل من أهدافه إقامة حضارة مسيحية. . . . . فكيف يسوغ لنا ـ بعد هذا ـ أن نشكك فى إيمان الغرب بالدين وتمسكه به؟

ولكن لا ينبغى أن تخدعنا الصور عن الحقائق، ولا القشور عن اللباب، ولا الأسماء عن المسميات.

فالمسيحية عند هؤلاء (شعار) يرتبطون به، و(صليب) يتجمعون حوله، ونزهة إلى (الكنيسة) فى أيام الإنجازات، وليست

(قيمًا) يؤمنون بها، وعقائد يخضعون لها، ويكيفون حياتهم وفقًا لها، ونحن نتحدث ـ طبعًا ـ عن الغالبية العظمى، لا عن أفراد يعدون شواذ بالقياس إلى مجتمعهم، فهم فى قومهم كحلقة فى فلاة.

فالغربى الحديث إذا كشفت عن جوهره الحقيقى وجدت إنسانًا لا يعرف إلا المادية دينًا، والنفعية مذهبًا.

يقول محمد أسد فى هذا السياق فى كتابه «الإسلام على مفترق الطرق» : «إن الأوروبى الحديث ـ بما انطوى عليه من جحود مهمل لوجود النفس على أنها حقيقة عملية ـ لم يبق لهدف الحياة عنده أهمية عملية ما. لقد ترك التأمل المطلق والاعتبار فى الحياة وراءه ظهريًا».

«إن الاتجاه الدينى مبنى دائمًا على الاعتقاد بأن هنالك قانونًا أدبيًا مطلقًا شاملاً، وأننا ـ نحن البشر ـ مجبرون على أن نخضع أنفسنا لمقتضيات اقتصادية، أو اجتماعية، أو قومية. إن معبودها الحقيقى ليس من النوع الروحانى، ولكنه الرفاهية!»[1]

ثم حلل الكاتب مناهضة المدنية الأوروبية للدين، وأعاده إلى سببين أساسيين :

(١) الإسلام على مفترق الطرق: ترجمة: د. عمر فروخ ـ ص ٣٠.

أولهما : وراثة أوروبا للمدنية الرومانية، مع اتجاهها المادى التام فيما يتعلق بالحياة الإنسانية، وقيمتها الذاتية.

الثانى : ثورة الطبيعة الإنسانية على احتقار النصرانية للدنيا، وعلى كبت الرغبات الطبيعية والجهود المشروعة فى الإنسان[1]

وقد حلل الحضارة الرومانية ـ التى هى أم الحضارات تحليلاً دقيقًا، ينبغى لنا أن نسجله، وأن نعيه وعيًا جيدًا. قال: «إن الرومانيين فى الحقيقة لم يعرفوا الدين، وإن آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية، لقد كانت أشباحًا سُكت عن وجودها حفاظًا للعرف الاجتماعى، ولم يكن يُسمح لها قط بالتدخل فى أمور الحياة الحقيقية، بل كان عليها أن تنطق بالرجز على ألسنة عرافيها إذا سئلت عن مثل ذلك، ولكن لم يكن ينتظر منها أن تمنح البشر شرائع خلقية.

«تلك كانت التربة التى نمت فيها المدنية الغربية الحديثة، ولقد عملت فيها بلا شك مؤثرات أخرى كثيرة فى أثناء تطورها، ثم إنها بطبيعة الحال قد حورت وبدلت فى ذلك الإرث الثقافى الذى ورثته عن رومية فى أكثر من ناحية واحدة، ولكن الحقيقة الباقية : أن كل

(١) الإسلام على مفترق الطرق، ص ٤٠.

ما هو اليوم حقيقى فى الاستشراف الغربى للحياة والأخلاق يرجع إلى المدنية الرومانية.

«وكما أن الجو الفكرى والاجتماعى فى رومية القديمة كان نفعيًا بحتًا، ولا دينيًا - لا على الافتراض بل على الحقيقة - فكذلك هو الجو فى الغرب الحديث...

إن المدنية الغربية لا تجحد الله البتة - أى جحودًا مطلقًا فى قوة وصراحة - ولكنها لا ترى مجالا ولا فائدة لله فى نظامها الفكرى الحالى....

«وهكذا يميل الأوروبى الحديث إلى أن ينسب الأهمية العلمية فقط إلى تلك الأفكار التى تقع فى نطاق العلوم التجريبية، أو تلك التى ينتظر منها على الأقل أن تؤثر فى صلات الإنسان الاجتماعية بطريقة ملموسة، وبما أن وجود الله لا يقع تحت هذا الوجه، ولا تحت ذاك، فإن العقل الأوروبى يميل بداءة إلى إسقاط (الله) من دائرة الاعتبارات العلمية»[1].

ولم ينكر (ليوبولد فايس) أن فى الغرب بعض هؤلاء الأفراد المتدينين، إلا أنهم لا يستطيعون أن يقفوا أمام الموجة المادية العاتية، أو يؤثروا فى توجيه التيار الفكرى العام. قال: «لا ريب أنه لا يزال

(١) الإسلام على مفترق الطرق: ص ٣٤ وما بعدها.

فى الغرب أفراد عديدون يشعرون ويفكرون على أسلوب دينى، ويبذلون جهود القانط حتى يوفقوا بين معتقداتهم وبين روح حضارتهم، ولكن هؤلاء شواذ فقط.

«إن الأوروبى الحديث ـ سواء عليه أكان ديمقراطيًا أم فاشيًا، رأسماليًا أم بلشفيًا، صانعًا أم مفكرًا ـ يعرف دينًا إيجابيًا واحدًا. هو التعبد للرقى المادى، أى الاعتقاد بأنه ليس فى الحياة هدفًا آخر سوى جعل الحياة نفسها أيسر فأيسر.

إن هياكل هذه الديانة ـ أى معابدها وكنائسها ـ إنما هى المصانع العظيمة، ودور السينما، والمختبرات الكيماوية، وباحات الرقص، وأماكن توليد الكهرباء! وأما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون، وكواكب السينما، وقادة الصناعات، وأبطال الطيران! . وإن النتيجة التى لا مفر منها فى هذه الحال: هى الكدح لبلوغ القوة والمسرة ـ أى اللذة ـ وذلك يخلق جماعات متخاصمة مدججة بالسلاح، مصممة على أن يفنى بعضها بعضًا حينما تتصادم مصالحها المتقابلة.

أما على الجانب الثقافى، فنتيجة ذلك خلق نوع بشرى تنحصر فلسفته الأخلاقية فى مسائل الفائدة العلمية، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر، إنما هو التقدم المادى ولا غير[1].

(١) الإسلام على مفترق الطرق: ص ٤١.

وليست شهادة (ليوبولد فايس) على المدنية الغربية هى الشهادة الوحيدة، فهناك كثيرون غيره من أبناء الغرب المسيحيين شهدوا بما شهد، وأكدوا ما قال، وقد نقل لنا الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه القيم «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» عن الأستاذ (جود) الإنجليزى قوله : «إن نظرية الحياة التى تسود هذا العصر وتحكم عليه : هى النظرة فى كل مسألة وشأن، من ناحية المعدة والجيب»[1]

وقد أجاد الصحفى الأمريكى المشهور (جون جنتر) تمثيل هذه فى كتابه (فى داخل أوروبا) بقوله : «إن الإنجليز إنما يعبدون بنك إنجلترا ستة أيام فى الأسبوع، ويتوجهون فى اليوم السابع إلى الكنيسة!!» [2]

وهذه شهادات قديمة، وقد ساء الوضع وتدهور كثيراً وكثيراً عما شهده وشهد به هؤلاء النقاد، وقد ذكرت الإحصاءات الحديثة أن ٥٪ فقط من الغربيين هم الذين يذهبون إلى الكنيسة أيام الآحاد، وإن لم يكن هذا الذهاب يعنى التدين بالضرورة.

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ص ١٥٧.

(٢) المرجع السابق : ص ١٥٧

ثالثًا: النزعة العلمانية

من سمات الفكر الغربى وخصائصه : النزعة العلمانية ـ وهى من ثمار الخصيصتين السابقتين ولوازمهما ـ وهى تلك النزعة التى تفصل بين الدين والدولة، وبعبارة أخرى : بين الدين والحياة الاجتماعية.

فالدين فى نظر الغربى علاقة بين الإنسان وربه، محلها ضميره الذى بين جنبيه، فإن خرج الضمير، فلا يجوز له أن يتجاوز جدران المعبد، أو الكنيسة، وليس من شأنه أن يوجه الحياة بالتشريع والإلزام، وفرض تعاليمه وأحكامه على المؤسسات التى تحكم المجتمع، وتدير دفته من تعليم وتربية، وثقافة وإعلام وإدارة واقتصاد وسياسة وتشريع.

وقد آمن الغرب بهذه الفكرة، بعد صراعه المرير مع المؤسسة الدينية الممثلة فى الكنيسة ورجالها وكهنتها، الذين زعموا أنهم يمثلون فى الأرض إرادة الإله فى السماء، وأن رأيهم دين، وطاعتهم عبادة، ومخالفهم شيطان.

وللأسف كان رأيهم وفكرهم ـ الذى اعتبروه دينًا من عند الله ـ يؤيد الخرافة ضد الفكر، والجهل ضد العلم، والجمود ضد التحرر، والظلم ضد العدل، والظلام ضد النور.

وقد أقامت الكنيسة (محاكم التفتيش) لمطاردة العلم، ومحاكمة العقل، ومقاومة الابتكار، ومحاربة كل جديد، وفعلت الأفاعيل - التى لم يعرف التاريخ لها مثيلاً - ضد العلماء والمفكرين والمخترعين، وقتلتهم أحياء، وحرقتهم أمواتا.

فلما مس الغرب المسيحى نفحة من الشرق الإسلامى، هب يدافع عن ذاته، ويثور على جلاديه، ويرفض الدين الذى حرمه من الدنيا، وحرَّم عليه العلم والتفكير، دين الكنيسة والبابوات، الذين يملكون قرارات الحرمان، وصكوك الغفران، يوزعوها على من يشاءون.

رفض الفكر الغربى الناهض الدين الذى كبله بالأغلال، ولم يسمح له بالبقاء إلا مستكنا فى الضمائر، فإن خرج فإلى المعابد والكنائس أيام الآحاد لا يعدوها.

ولا غرو أن الغرب بعد أن أنزل الدين عن عرشه، وعزله عن عجلة القيادة، نهض بعد عثرة، وارتقى بعد هبوط، واغتنى بعد فقر، وقوى بعد ضعف، وهذا ما جعله يزداد إيمانًا بما انتهى إليه خلال مسيرته التاريخية : ألا مكان للدين فى توجيه الدولة والمجتمع.

ومما يؤيد هذا التوجه فى الفكر الغربى : أن الإنجيل نفسه يؤيد

هذا الاتجاه ويدعمه، حيث يقول المسيح: **دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله**.

ومعنى هذا: أنه قبل قسمة الحياة نصفين: نصف للدولة والمعبر عنها بـ (قيصر) ونصف للدين، الذى هو لله.

فهذا الانقسام والانفصام بين الله وقيصر، أو الدين والدولة هو أحد السمات الأساسية لفكر الإنسان الغربى.

رابعًا: الصراع

من خصائص الحضارة الغربية: أنها حضارة تقوم على الصراع، لحمتها وسداها الصراع، لا تعرف السلام ولا الطمأنينة ولا الحب.

وهو صراع متغلغل فى كل النواحى، متنوع الأشكال، متعدد المجالات، متباين الأسلحة والأساليب.

إنه صراع بين الإنسان ونفسه، وصراع بين الإنسان والطبيعة، وصراع بين الإنسان والإنسان، وصراع أيضًا بين الإنسان والإله!

فالإنسان فى الغرب يصارع فطرته التى فطره الله عليها، إذا أراد أن يحيا الحياة المثالية التى تريدها له ديانته النصرانية، فالوضع المثالى

له أن يستقذر الجنس، ويرفض المال، لأن الغنى لا يدخل ملكوت السماوات إلا إذا دخل الجمل من سم الخياط، ويحرم نفسه من الطيبات من الرزق، ومن زينة الله التى أخرج لعباده، ويتحمل السيئة من المسىء، ويدير خده الأيسر لمن ضربه على خده الأيمن! فإذا لم يستطع أن يفعل ذلك - كما هو شأن معظم الناس - ظل يعانى عقدة الصراع بين مثاليته التى يؤمن بها وواقعه الذى يعيشه ويمارسه.

وإنسان الحضارة الغربية فى صراع مع الطبيعة؛ لأنه ينطلق من أن الطبيعة عدو له، يجب أن يفرض سيطرته عليها، ولذلك يعبر الغربيون عن ذلك بكلمة (قهر الطبيعة) وهى كلمة لها دلالاتها وإيحاؤها. على حين يرى الإسلام أن الطبيعة بكل ما فيها مسخرة لمنفعة الإنسان كما فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾

[لقمان: ٢٠]

وهو ما عبر عنه النبى أجمل تعبير وأرقه فى شأن جبل أحد حين قال: **«أحد جبل يحبنا ونحبه»**[(١)].

---

(١) مسند أحمد: حديث رقم ١٣٠٣٧.

والإنسان فى الحضارة الغربية فى صراع مع أخيه الإنسان، وهو صراع يأخذ صوراً شتى.

فهو صراع بين الأفراد من أجل منافعهم الفردية المتباينة، ولاسيما مع سيادة النزعة الفردية، والفلسفة النفعية، وشيوع مقولة (هوبز): «الإنسان ذئب للإنسان»! وقول كل امرئ بعد ذلك: «أنا وليخرب العالم»!.

وهو صراع بين الطبقات والجماعات، وخصوصًا مع كل جماعة بالمنافع لأنفسها، وجورها على غيرها، واحتقارها لمن سواها.

وهو صراع بين الأمم والأجناس، وخصوصًا مع حدة الشعور القومى، ونزعة الاستعلاء عند كل أمة، وهو ما أدى إلى حروب إقليمية وعالمية، وما نزال نرى أثره فى العلاقة بين البيض والسود، أو البيض والملونين عامة، فى أمريكا وإفريقيا وغيرها.

وهو صراع بين المؤسسات، كالصراع بين الكنيسة والدولة، الذى انتهى إلى ما عرف عندنا باسم (العلمانية)، وتعنى: فصل الدين عن شئون الدولة والمجتمع.

ومثله الصراع بين الدين والعلم، وبعبارة أخرى بين المؤسسة التى تمثل الدين وهى الكنيسة ورجال الأكليروس، والمؤسسة التى تمثل العلم وهى الجامعات ومراكز البحث وغيرها.. وقد تجسد هذا

الصراع فى محاكم التفتيش التاريخية وما قامت به ضد العلم والعلماء من مآس تشيب لهولها الولدان.

وأدهى من ذلك كله وأمرّ فى الحضارة الغربية : الصراع بين الإنسان والرب أو الإله، وهذا فكر موروث من مصدرين رئيسين :

١ـ وثنية اليونان وآلهتها التى كانت تغير وتدمر وتحرق.

٢ـ العهد القديم (التوراة وملحقاتها) الذى يصور الإله حاقداً ناقماً غيوراً حتى إنه يخلق الإنسان (آدم) ثم يخاف منه، ويخشى أن يزاحمه فى المعرفة أو الخلود، فيحرم عليه الأكل من الشجرة، وهو يصارع إسرائيل، فيصرعه إسرائيل، فلا يفلته إلا بوعد منه لمصلحة نسله وذريته !!.

خامساً: الاستعلاء على الآخرين

من سمات الفكر الغربى : نزعة الاستعلاء على الآخرين، التى تسرى وتتحكم فى عقول الغربيين كافة، فهم يعتقدون أنهم أفضل من غيرهم عنصراً، وأنقى دماء، وأنهم خلقوا ليقودوا ويسودوا ويحكموا، وأن الآخرين خلقوا ليكونوا مسودين ومحكومين لهم. وهكذا بالفطرة والخلقة.

ولهذا سادت نظرية (تفاضل الأجناس)، وأن الناس ليسوا سواسية، كما نؤمن نحن المسلمين، لأن أباهم عندهم واحد، وربهم واحد، بل الأجناس والعروق متفاوتة بحكم الخلقة، والجنس الآرى أفضلها وأزكاها وأقدرها، هكذا آمن (رينان) وغيره من الفلاسفة فى القرن الماضى.

ولقد سقطت هذه النظرية من الناحية العلمية، فلم يثبت العلم أن هناك جنسًا أفضل من جنس، من جهة الخلقة أو الفطرة، ولكنها البيئة والظروف المساعدة، وقد كانت شعلة الحضارة فى يد الشرق قديمًا، أيام الحضارة الفرعونية، والهنود، والصينيين، والبابليين والفينيقيين، وغيرهم، ثم انتقلت الشعلة إلى الغرب أيام حضارة اليونان والرومان، ثم عادت إلى الشرق على يد الحضارة العربية الإسلامية، ثم انتقلت مرة أخرى إلى الغرب بعد أن مسته نفحة من الشرق الإسلامى عن طريق الأندلس وصقلية، ولقاءات الحروب الصليبية، والدور الآن للشرق لا للغرب الذى أفلس فى قيادة الحضارة وإسعاد العالم بها.

لقد سقطت نظرية تفاضل الأجناس علميًا، ولكنها لم تسقط نفسيًا، وما زال لها تأثيرها فى أنفس الكثيرين، بل الأكثرين من أبناء الغرب فى علاقتهم بالآخرين.

ولهذا نجد الأوروبيين يعتقدون أن أوروبا أم الدنيا، وأن التاريخ منها بدأ، وإليها يعود، وأن التاريخ القديم والوسيط والحديث هو تاريخ أوروبا وحدها. وأن الحضارة هى حضارتهم وحدهم.

وهذا ما أخذه الأوروبيون عن الرومان الذين كان العالم فى نظرهم ينقسم إلى رومان وبرابرة، فكل من عداهم برابرة همج!

وقد رأينا الاستعلاء العام لدى الأوروبيين عامة ينتقل إلى أقطار منها خاصة، كل يزعم أنه الأنقى سلالة، والأزكى عنصراً. كما صنع هتلر ورفع شعار: ألمانيا فوق الجميع، وكما فعل موسولينى وجماعته، ورفعوا شعار: إيطاليا فوق الجميع، وكما فعل البريطانيون الذين رفعوا شعار: سودى يا بريطانيا واحكمى!

فشأن هؤلاء شأن بنى إسرائيل الذين يزعمون أنهم بجنسهم شعب الله المختار.

تلك هى أبرز السمات والخصائص المميزة للفكر الغربى. والتى كان لها نضجها وأثرها على سلوكه وتصرفاته وعلاقاته بنفسه وبالآخرين، وكان لها ثمار إيجابية فى بعض الجوانب، كما لها آفات وثمارها المرة فى جوانب أخرى، وإن الغربيين أنفسهم هم الذين أبصروا هذه الآثار السيئة لهذه الحضارة المادية الصناعية الآلية، وطفقوا ينكرون عليها ماديتها وعلمانيتها واستعلاءها

وغرورها، وشرعوا ينادون بوجوب العودة إلى الدين، ويستبشرون بمستقبل العقيدة[1]

«وغنى عن القول إن الغربيين ليسوا ملائكة، وإن فيهم الجانحين واللصوص والمجرمين، ولعل هؤلاء فى الغرب أكثر من أمثالهم فى الشرق وأشد خطراً، ولكن السواد الأعظم من الغربيين ليس من هؤلاء»[2]

وهذا يدعونا إلى الحديث عن ضرورة الإيمان والحياة الروحية والتربية الأخلاقية للإنسان، وأثر الفرد فى نهضة الأمة، وسيكون مدار الحديث فى المبحث الثانى.

***

(١) الإسلام وحضارة الغد: د. القرضاوى ـ ص ١١ وما بعدها.

(٢) مقدمة لتاريخ الفكر العلمى فى الإسلام ـ د. أحمد سليم سعيدان ـ ص١٤٤

المبحث الثانى

النهضة والحضارة الإسلامية

ترتبط فكرة النهضة بمفهوم الحضارة لكل أمة، وتتألف الحضارة من العناصر الأربعة الرئيسة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون. ولإطْراء الحضارة وتقدمها عوامل متعددة من جغرافية، واقتصادية، ونفسية كالدين واللغة والتربية، ولانهيارها عوامل هى عكس تلك العوامل التى تؤدى إلى قيامها وتطورها، ومن أهمها:

الانحلال الأخلاقى والفكرى، واضطراب القوانين والأنظمة، وشيوع الظلم والفقر وانتشار التشاؤم أو اللامبالاة، وفقدان الموجهين الأكفاء والزعماء المخلصين.

وقصة الحضارة تبدأ منذ عُرف الإنسان، وهى حلقة متصلة تسلمها الأمة المتحضرة إلى من بعدها ولا تختص بأرض ولا عرق،

وإنما تنشأ من العوامل السابقة التى ذكرناها. وتكاد لا تخلو أمة من تسجيل بعض الصفحات فى تاريخ الحضارة، غير أن ما تمتاز به حضارة عن حضارة، إنما هو قوة الأسس التى تقوم عليها، والتأثير الكبير الذى يكون لها، والخير العميم الذى يصيب الإنسانية من قيامها، وكلما كانت الحضارة عالمية فى رسالتها، إنسانية فى نزعتها، خلقية فى اتجاهاتها، واقعية فى مبادئها كانت أخلد فى التاريخ، وأبقى على الزمن، وأجدر بالتكريم.

وحضارتنا حلقة من سلسلة الحضارات الإنسانية، سبقتها حضارات، وستتبعها حضارات. وقد كان لقيام حضارتنا عوامل، ولانهيارها أسباب[1]

* * *

(١) من روائع حضارتنا: د. مصطفى السباعى ـ دار الوراق ـ ص ٦٩ وما بعدها، وانظر: هذا إسلامنا ـ خلاصات الأفكار ـ د. محمد عمارة ـ ص ٢١ وما بعدها.

خصائص الحضارة الإسلامية

أولاً: حضارة تقوم على أساس الوحدانية المطلقة فى العقيدة

فهى أول حضارة تنادى بالإله الواحد الذى لا شريك له فى حكمه وملكه، هو وحده الذى يُعبد، وهو وحده الذى يُقصد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وهو الذى يعز ويذل ويعطى ويحرم، وما من شىء فى السماوات والأرض إلا وهو تحت قدرته وفى متناول قبضته.

هذا السمو فى فهم الوحدانية كان له أثر كبير فى رفع مستوى الإنسان وتحرير الجماهير من طغيان الملوك والأشراف والأقوياء ورجال الدين، وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين، وتوجيه الأنظار إلى الله وحده وهو خالق الخلق ورب العالمين. كما كان لهذه العقيدة أثر كبير فى الحضارة الإسلامية تكاد تتميز به عن كل الحضارات السابقة واللاحقة، وهى خلوها من كل مظاهر الوثنية وآدابها وفلسفتها فى العقيدة والحكم والفن والشعر والأدب[1]

(١) من روائع حضارتنا: ص ٧١.

ثانيًا: حضارة إنسانية عالمية متجددة

اعتمدت الحضارة الإسلامية بصفة أساسية على الفكر الإسلامى المستمد من الكتاب والسنة، ولكنها تميز بين العبادات والعقيدة من جانب وما عداها من نظم من جانب آخر، والجانب الأول يخص المسلمين وحدهم، وأما الجانب الثانى فهو عام يشمل المسلمين وغير المسلمين. ومن هنا كانت حضارة إنسانية عالمية غير عنصرية وغير متعصبة فهى تخاطب البشر كافة وتسوى بينهم بصرف النظر عن دينهم ولغتهم وجنسهم، مصداقا لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]

وهى حضارة تقوم على التسامح الدينى. فسبحانه وتعالى يقول: ﴿لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهى حضارة متجددة؛ لأنها تفتح باب الاجتهاد ـ فيما لم يرد فيه نص قطعى ـ وتحض على طلب العلم والتأمل فى أمور الكون ولذلك كان للأبحاث العلمية الإسلامية دور مشهود فى بناء صرح الحضارة العالمية الحديثة[1]

(١) نحو مشروع حضارى لنهضة العالم الإسلامى: ضمن سلسلة قضايا إسلامية ـ العدد ٥٠ ـ ص ٦٨ ـ ٦٩.

ثالثًا : حضارة يقوم حكمها على الشورى والمساواة وكفالة الحريات السياسية

تميزت الحضارة الإسلامية عما عاصرها وتلاها من حضارات حتى القرن الثامن عشر الميلادى بإقامة نظام الحكم على أساس الشورى ولم يضع الكتاب ولا السنة أحكاما تفصيلية لنظام الشورى واكتفيا بصياغة المبدأ العام وتركا التفاصيل لظروف المجتمع. وتقتضى الشورى حسبما جرى عليه التطبيق العملى فى صدر الإسلام أن شغل مناصب الخلافة يكون بالانتخاب وأن يشترك ذوو الرأى مع ولى الأمر فى اتخاذ القرارات المهمة مما يحول دون الاستبداد بالرأى، وكفالة الحريات السياسية للمواطنين، ومحاسبة الحاكم وعزله.

وقد اختلف الرأى بين الفقهاء حول حكم الشورى فذهب فريق منهم إلى أنها واجبة وذهب آخرون إلى أنها مندوبة. واختلف الفريق الأول حول أثرها فمنهم من يرى إلزام ولى الأمر بما انتهت إليه المشاورة ويجعل من مخالفته سببًا من أسباب عزله، ومنهم من يرى غير ذلك.

ويتبين من ذلك أن نظام الشورى شبيه بالنظم الديمقراطية الحديثة، وهو يتسع لكل صور الحكم المعروفة الآن طالما أنها تبتعد عن الاستبداد بالرأى وعدم التمييز بين الناس وكفالة الحريات

السياسية، فهى تتسع للنظم الملكية الدستورية والنظم الجمهورية، ويجوز أن يكون نظام الحكم برلمانيًا أو رئاسيًا أو مختلطًا كما تتسع لنظم الدولة المركبة فيدرالية كانت أو كونفدرالية.

ومبدأ المساواة أصل عام من أصول الحكم فى الإسلام، ويعبرون عنه بتعبير العدل. والأمر بالعدل والنهى عن الظلم وردت فيه آيات قرآنية كثيرة وأحاديث نبوية متعددة.

ومن أهم تطبيقات العدل الخطاب الموجه إلى أولى الأمر فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، والحكم بالعدل واجب حتى بالنسبة للأعداء والخصوم لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المائدة: ٨]

ومن تطبيقات العدل بمعنى المساواة الحديث الشريف الذى يقول: **«إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذى نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»** (١)

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى: كتاب الأنبياء ـ حديث (٣٤٧٥) ـ ٦/ ٥٩٣.

ومن تطبيقات العدل ضرورة المساواة بين المسلمين وغير المسلمين وصاغوا هذه المساواة فى المبدأ الآتى : (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) فى جميع الحقوق والواجبات.

والحريات السياسية كفلها الإسلام للناس كافة والشواهد التاريخية تقطع بذلك ومنها ما قاله الخليفة عمر «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

وكذلك الحال فى شأن حرية العقيدة ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وتكمل حرية العقيدة حرية إقامة الشعائر الدينية. بل إن التسامح الدينى وصل مداه فى تقرير حق أهل الكتاب فى اتباع ما ورد فى دينهم من أحكام لصيقة بالدين، مثل الأحوال الشخصية، ولو كانت مخالفة للشريعة الإسلامية[1]

رابعًا: الحضارة الإسلامية تتضمن تنظيمًا شاملاً لأمور الدين والدنيا

تختلف الحضارة الإسلامية عما عاصرها وتلاها من حضارات فى أنها تنظم كل جوانب النشاط الإنسانى فى الدنيا سواء فى ذلك النشاط السياسى أو الاجتماعى أو الاقتصادى أو القانونى فضلاً عن

(١) نحو مشروع حضارى لنهضة العالم الإسلامى ـ ص ٧٤ وما بعدها.

تنظيم الأمور الدينية والأخلاقية، وهى بذلك تختلف عن المسيحية التى فصلت بين الدين وناطت به الكنيسة عن الشئون الدنيوية وناطت بها الدولة. أما فى الإسلام فإنه يكاد يكون مستحيلاً أن نفصل بين الجانب الدينى والجانب الدنيوى فى أى تنظيم من التنظيمات التى تضمنتها الحضارة الإسلامية. ولذلك يعتبر الدين وما ينظمه من قيم روحية وأخلاقية، دعامة أساسية من دعامات المجتمع الإسلامى، وأداة فعالة فى تحقيق الانسجام الاجتماعى، وركيزة أساسية للتضامن الاجتماعى. ومن هنا لا تترك الحضارة الإسلامية رعاية شئون الدين لضمير الفرد بعيدًا عن الدولة ـ كما تذهب المذاهب العلمانية ـ ولا تنكره على خلاف المذهب الشيوعى الذى يصفه بأنه أفيون الشعوب. بل إن مسئولية حفظ الدين ورعايته تقع على عاتق الدولة.

والجمع بين الدين والدولة يرجع إلى الغاية المثالية التى يستهدفها الإسلام، فهو يتوخى تربية إنسان سوى الطبيعة تتوازن داخله كل نوازع النفس البشرية، ويلزمه بأن يراعى فى سلوكه مصلحته الذاتية ومصلحة الجماعة التى يعيش معها.

وبذلك تقوم الحضارة الإسلامية على تحقيق التوازن بين الجانبين المادى والروحى فى حياة الإنسان وفى تنظيم علاقته بالغير مصداقًا

لقوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]

واستكمالاً لهذا المبدأ تدعو الحضارة الإسلامية إلى إقامة تكامل بين الحياة والدين والآخرة، فسلوك الإنسان فى الدنيا هو الطريق إلى نعيم الآخرة أو عذابها، وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

[الزلزلة: ٧ـ٨]

وبهذه الصورة يجتمع للفعل الواحد جزاءان: جزاء دنيوى توقعته السلطة العامة، وجزاء أخروى. لذلك نظم الإسلام كل قواعد السلوك الإنسانى: قانونى ودينى وأخلاقى.

والحضارة الإسلامية تجمع بين العلم والإيمان فى وحدة متناسقة. فالعلم ليس خادمًا مطيعًا للإيمان كما كان الحال فى العصور الوسطى فى أوروبا، كما أن الدين ليس عدواً مبينًا للعلم حسبما ينادى المذهب الشيوعى، فالأحاديث النبوية تجعل من طلب العلم فريضة، والآيات القرآنية تدعو الإنسان إلى اكتشاف أسرار الكون بالدرس والملاحظة والتفكير.

ومن هنا كان الاجتهاد وحرية التفكير أصلاً من أصول الحضارة الإسلامية، فيما يقبل الاجتهاد لملاحقة التطورات الاجتماعية والعلمية والاقتصادية. وهو ما عبر عنه الرسول الكريم بقوله: **«إن الله يبعث من هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها»**[1].

ولكل ما تقدم كان حفظ الدين ورعايته من أهم واجبات الدولة فى المجتمع الإسلامى.

خامسًا: حضارة تقوم على التكافل الاجتماعى

تستهدف الحضارة الإسلامية إقامة مجتمع يوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، وتقيم هذا التوازن على أساس التآخى والمحبة والتراحم وهو ما نعبر عنه الآن بالسلام الاجتماعى أو التكافل الاجتماعى.

والقرآن الكريم قاطع فى هذا الشأن. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]

---

(١) سنن أبى داود: كتاب الملاحم ـ حديث رقم ٣٧٤٠.

وهذا التآخى والتراحم ليس دومًا تمييز بينهم، وآية ذلك تحريم كل ما من شأنه أن يكون مصدراً للحقد والضغينة والاستغلال مثل الخمر والميسر والزنا وعقود الغرر والربا والاحتكار. وتضع الحضارة الإسلامية ضوابط محكمة لتحقيق مبدأ العدالة الاجتماعية وتجعل احترام هذه الضوابط من بين واجبات الدولة.

فهى ليست دولة حارسة ـ كما هو الحال فى الحضارة الغربية ـ تقتصر وظيفتها على حفظ الأمن فى الداخل والدفاع عن البلاد وإقامة القضاء للفصل فى الخصومات كما أنها ليست دولة متداخلة فى كل صغيرة وكبيرة فى النشاط الإنسانى ـ كما ينادى المذهب الشيوعى وبعض صور المذاهب الاشتراكية ـ فالدولة فى الإسلام دولة راشدة تقوم بوظيفة اجتماعية بجانب وظائفها الأخرى مصداقًا لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]

فهى تحترم حقوق الأفراد طالما يمارسها صاحبها فى حدود وظيفتها الاجتماعية، فالعمل حق وعلى صاحبه أن يمارسه فيما لا يضر بالجماعة، والملكية حق له حرمته طالما اكتسبها بطريق مشروع مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]

أما إن اكتسبها بطريق خبيث تجردت من كل حماية. وعلى المالك أن يمارس حقه فيما لا يضر الجماعة وأن يحسن الانتفاع به ليستغله فيما يعود عليه وعلى الجماعة بالنفع إعمالاً لما قررته الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

ولا تكتفي الحضارة الإسلامية بالاعتراف للأفراد بالحقوق وتقيدها لصالح الجماعة بل تضع على عاتق الدولة التزامًا بتوفير الحاجات الأساسية للمواطنين وإجراء الأرزاق على المحتاجين وتوفير فرص العمل المناسب للقادرين عليه[1]، وهذا المعنى عبر عنه رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بقوله: **«من ترك مالا فلورثته ومن ترك دينًا أو ضياعًا فعليّ وإليّ وأنا أولى بالمؤمنين»**[2]

* * *

(١) نحو مشروع حضاري لنهضة العالم الإسلامي: ص ٧٩ ـ ٨٠.

(٢) سنن ابن ماجة: حديث رقم ٢٤١٦. ص ٣٨٧ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

المبحث الثالث

المخرج من الواقع الأليم إلى مستقبل مشرق

الإسلام هو دين الفطرة الإنسانية السليمة، والعقل السليم، والمنطق القويم، دين خالد بمبادئه الإنسانية، وقيمه الروحية وحضارته الحقيقية، وعناصره الإلهية، التى تمثل الحرية والديمقراطية والوفاء و الإخلاص والأمانة، التى لا نظير لها فى المدنية الأوروبية الحديثة.

الإسلام دين ينظر إلى الإنسانية نظرة واحدة، فيها العدالة والمساواة، وتكافؤ الفرص، ولا فرق بين فرد وآخر بسبب جنسه أو لونه أو عنصره، أو قبيلته أو أسرته فهو ضد الطائفية، ضد العصبية، ضد التفرقة العنصرية. لا فرق فيه لعربى على أعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح. فالناس فى الإسلام متساوون كأسنان المشط.

الإسلام مثالى فى روحه، مثالى فى أخلاقه، مثالى فى آدابه، مثالى فى معاملاته، مثالى فى نظمه وأحكامه، لأنه ينادى بالكمال الإنسانى، والشخصية الكاملة للإنسان الكامل.

ولا نبالغ إذا قلنا إن الإسلام قد حقق فى القرن السابع الميلادى من المثل العليا، والمبادئ السامية ما لم تحققه أوروبا الحديثة، والولايات المتحدة الأمريكية فى القرن العشرين. ولن تصل أوروبا أو أمريكا إلى تلك المثل الإسلامية الرفيعة، مادامت متمسكة بتلك الأفكار التى تدين بالتفرقة العنصرية، وتعمل على التفرقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وعلى تحكم الأقوياء فى الضعفاء، والأغنياء فى الفقراء، واستغلال البيض للسود[1]

والناس فى الغرب والشرق يحاولون حل هذه الأزمات دون أن يتنبه أحد منهم، ودون أن يتنبه المسلمون أنفسهم إلى أن الإسلام كفيل بحلها، فأهل الغرب يتلمسون اليوم جدة روحية تنقذهم من وثنية تورطوا فيها، وكانت سبب شقائهم وعلة ما ينشب من حروب بينهم، تلك عبادة المال. وأهل الغرب يتلمسون هذه الجدة فى مذاهب الهند والشرق الأقصى على حين هى قريبة منهم يجدونها

(١) عظمة الإسلام: محمد عطية الإبراشى - ج١/ ١٤ - ١٥.

مقررة فى القرآن، مصورة خير صورة فيما ضربه النبى العربى للناس من مثل أثناء حياته[1]

لماذا تأخر المسلمون ؟

إن من ينظر إلى هذا العالم فى القرن الواحدوالعشرين يجد أنه قد نسى القيم الروحية، والمبادئ الخلقية من الوفاء والمروءة، والأمانة والرحمة، نسى حياة الفضيلة، واتجه بعقله وعمله ـ فقط ـ إلى الحياة المادية، حياة الغدر والخيانة، والقتل والقسوة، فعاش فى حرب ونزاع وقتال، وشاهد آثار الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨)، وآثار الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) فى النصف الأول من القرن العشرين. ولو اتجه العالم إلى روح الإسلام، وروح الجمع والتوسط بين الحياة الروحية والحياة المادية لتجنب تلك الحروب التى قاسى الغالب والمغلوب ويلاتها، وقاست الإنسانية فظائعها.

وما أجمل قول الرسول الكريم : **«اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لأخرتك كأنك تموت غدا»**[2]

---

(١) حياة محمد ـ محمد حسين هيكل ـ ص ٤١١.

(٢) صحيح مسلم.

إن الاستعمار هو السبب فيما حدث من حروب وويلات، وإن مطامع الاستعمار الغربية هى التى هددت وتهدد السلام العالمى بالتدمير والخراب، ذلك الاستعمار الغربى الذى كان سببًا فى تخلف الشرق والشرقيين، عشرات من السنين. فهؤلاء المستعمرون لصوص يدخلون البلاد الآمنة تجاراً فى الظاهر، ومستغلين وقراصنة فى الواقع. فقد دخلوا لينهبوا ما فيها من خيرات وغنائم ومواد أولية، وليبيعوا منتجاتهم ومصنوعاتهم فيها، ويجردوها من أنواع الأسلحة والذخائر، وينشروا فيها الجهل والفقر والمرض، ويشجعوا الفساد الخلقى والمخدرات حتى تضعف، ولا تستطيع أن تدافع عن نفسها. فالاستعمار سبب التخلف فى البلاد الإسلامية. ولو اتحد المسلمون فى العالم، وتعاونوا على البر والتقوى، ما استطاع المستعمرون الذين يمتصون دماء الشعوب، ويتاجرون بالحروب - أن يدخلوا البلاد الإسلامية أو يسيطروا عليها فى يوم من الأيام. ولو اتحد العرب والمسلمين ما استطاعت إنجلترا أن تشرد أكثر من مليون من أهل فلسطين، وتطردهم من وطنهم، لتخلق وطنا ليهود العالم، يسمى إسرائيل.

«فالمسلمون أولى الناس بأن ينسبوا انحطاطهم إلى أنفسهم، وليس الذنب ذنب دينهم، بل هم منبع هذا الشر العميم الذى حل بهم، فأذهب نخوتهم وحميتهم، وطبعهم بطابع الذل

والصغار، حتى أصبحوا هملا لا راعى لهم تتخطفهم الدول الأجنبية»[1]

المسلمون لم يتأخروا اليوم بسبب دينهم

إن المسلمين اليوم لم يتأخروا بسبب دينهم، ولكنهم تأخروا لأنهم لم يحافظوا على دينهم، فتدخل الاستعمار فى شئونهم، وسيطر على بلادهم زمنًا ليس بالقصير. وقد شهد العلماء والمؤرخون بفضل المسلمين الأول وعلمائهم، وأدبائهم، وفلاسفتهم، وحكمائهم، وأطبائهم، وقادتهم.

وقد كانوا يقودون العالم حينما كانوا محافظين على دينهم، وأخلاقهم الإسلامية، كالصدق، والوفاء بالوعد، والأمانة فى المعاملة، والإحسان إلى الفقراء، والدفاع عن الحق، والعدالة فى الحكم، والعمل لكسب الرزق، وصلة الرحم، وبر الوالدين، والتمسك بما أمر الله، واجتناب ما نهى عنه. فلما تغير سلوكهم، وخالفوا المبادئ الإسلامية ضعفوا بعد أن كانوا أقوياء، وتأخروا بعد أن كانوا قادة العالم. وإن الأمم الناهضة اليوم نهضت وتقدمت؛ لأنها تتخلق بالأخلاق الإسلامية، ولو أنها لا تدين بالإسلام[2]

(١) الإسلام بين أمسه وغده ـ د. محمود قاسم ـ ص ٧٧.

(٢) عظمة الإسلام: محمد عطية الإبراشى ـ ج ١/ ٢٤٥.

إن المجتمع الذى تسيطر عليه مشاعر التضامن والتضحية والمصير المشترك يعتبر فى حالة دينية. هذا هو مناخ الحرارة العاطفية العالية الذى يظهر فى حالات الطوارئ، وفى الاحتفالات الدينية عندما يجمع الناس شعور الأخوة والصداقة.

إن المجتمع العاجز عن التدين، هو أيضًا عاجز عن الثورة. والبلاد التى تمارس الحماس الثورى تمارس نوعًا من المشاعر الدينية الحية. إن مشاعر الأخوة والتضامن والعدالة هى مشاعر دينية فى صميم جوهرها، وإنما موجهة فى ثورة لتحقيق العدالة والجنة على الأرض.

إن كلا من الدين والثورة يولدان فى مخاض من الألم والمعاناة ويحتضران فى الرخاء والرفاهية والترف. حياة الدين والثورة تدوم بدوام النضال والجهاد، حتى إذا تحققا، يبدأ الموت يتسرب إليهما ففى مرحلة التحقق فى الواقع العملى نهاية الأمر. فالمؤسسات الرسمية لا هى ثورية ولا هى دينية.

فإذا وجدنا خصومًا للثورة فى نطاق الدين، فهم خصوم ينتمون إلى الدين الرسمى فقط، أى إلى الكنيسة ونظامها الإدارى الهرمى، أو الدين المؤسسى الزائف. وعلى العكس، فإن الثورة الزائفة أى الثورة التى تحولت إلى مؤسسة وإلى بيروقراطية، تجد دائمًا حليفها

فى الدين الذى تحول هو أيضًا إلى مؤسسة وإلى بيروقراطية. فما أن تبدأ الثورة تكذب وتخدع نفسها حتى تمضى مع الدين المزيف يدًا بيد[1]

كيف يستعيد المسلمون مجدهم القديم؟

إن الإيمان بالله وحده هو الذى يجمع عشرات الألوف من المسلمين، على اختلاف لغاتهم، وجنسياتهم وألوانهم لأداء فريضة الحج، وزيارة المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كل عام، وهو الذى وحد بينهم، وجعلهم إخوة فى الإيمان وإرضاء الله ـ عز وجل ـ وجمعهم فى المسجد الحرام[2]

إن المسلمين الأول كانوا يؤمنون بالله إيمانًا قويًا، ويثقون بالله ثقة لا نهاية لها. ولا يخافون إلا الله ولا يخشون فى الحق لومة لائم. وكانوا يضحون بأنفسهم وأموالهم وأولادهم فى سبيل الله، وابتغاء مرضاته، ولذلك كان النصر حليفهم، وقد نصرهم الله على أعدائهم، وفتحوا العالم، ونشروا الإسلام فى مدة قصيرة لا تذكر.

---

(١) الإسلام بين الشرق والغرب ـ على عزت بيجوفتش ـ ترجمة يوسف عدس ـ ص ١١٥.

(٢) الإسلام شريكا «دراسات عن الإسلام والمسلمين» ـ فريتس شتيبات ـ ترجمة د. عبدالغفار مكاوى ـ ص ٩٣ بتصرف.

لقد كان المسلمون فى عملهم وأخلاقهم وإنسانيتهم، ووحدتهم، وتضامنهم وتعاونهم، وإيمانهم بالقدرة الإلهية، والعظمة الربانية خير أمة أخرجت للناس.

وكان المسلمون فى العصور الإسلامية الأولى متحدين اتحاداً قويًا، يفكرون فى إخوانهم فى مشارق الأرض ومغاربها، ويحبون لهم ما يحبون لأنفسهم، ويستهينون بالموت، ويطلبون الاستشهاد، ويقولون: احرص على الموت توهب لك الحياة. ويعملون بقوله ـ ﷺ ـ : **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»**[1] فانتصروا، وهابهم الله العالم كله، وقادوا العالم فى العدالة والحرية، والإخاء والمساواة، والحضارة المدنية.

ولكن أين الرابطة القوية التى كانت تربط المسلمين بعضهم ببعض فى عصور العظمة الإسلامية؟

إن المسلمين اليوم ـ مع الأسف الشديد ـ فى عزلة وتخاذل، وتنازع واختلاف، وعداء أحيانًا؛ لأنهم الآن محبون لأنفسهم، ولا يفكرون فى غيرهم من المسلمين، ولا يعبدون إلا المال والمركز والجاه والسلطان.

---

(١) صحيح مسلم: حديث رقم ٢٥٨٥.

فهل نعجب إذا صاروا ضعفاء بعد أن كانوا أقوياء، وأذلاء بعد أن كانوا أعزاء، ومتأخرين بعد أن كانوا يقودون العالم فيما مضى من الزمان؟!

ولن يستعيد المسلمون مجدهم القديم، وعصرهم الذهبى إلا إذا آمنوا بالله إيمانًا صادقًا، واتحدت كلمتهم، وتعاونت قلوبهم، وأحب كل مسلم أخاه كما يحب نفسه، ونبذوا الأهواء والأغراض، والمنافع الخاصة التى يجرون وراءها ويفكرون فيها.

إذا استطعنا أن نصل إلى تحقيق الروح الإسلامية الحقة، وآمنا بالعظمة الإلهية، ونظمنا حياتنا الإسلامية، وكونَّا وحدتنا القوية أمكننا أن نستعيد مجدنا التليد، وقوتنا السالفة. ولن تستطيع أى أمة أن تقف أمام الأمة الإسلامية المتحدة، المؤمنة بالله، وعظمته وحده لا شريك له. لن تستطيع أى قوة فى العالم أن تستهين بالمسلمين، أو تتحكم فيهم، أو تسيطر عليهم إذا اتحدوا وفكروا فى الموت أكثر من تفكيرهم فى الحياة كأجدادهم السابقين.

ولكى يستعيد المسلمون مجدهم فى صدر الإسلام يجب أن ينشروا التعليم فى بلادهم، حتى لا يبقى فيها أمى واحد، ويعملوا على رفع مستوى معيشة الفقراء بإعطائهم حقوقهم التى فرضها الله لهم، حتى لا يكون هناك سائل أو محروم بين المسلمين، ويتخلصوا من الفقر، ويعنوا بالتربية الدينية الخلقية المثالية، حتى نقضى على

الأثرة، وحب النفس والفساد الخلقى، ويهتموا بالناحية الصحية حتى يجد كل مريض وسائل العلاج ميسرة أمامه ويعنوا بالتربية الجسمية عنايتهم بالتربية العقلية والروحية والوجدانية والعملية.

وبهذا كله نقضى على الجهل والفقر والمرض وفساد الخلق. وهى المشكلات الاجتماعية التى خلفها الاستعمار وراءه قبل أن يرحل من البلاد الإسلامية التى احتلها عشرات السنين، وامتص خيرها، وخلف لهم الجهل، والفقر، والمرض، والفساد.

إن الإسلام قد منح الإنسان حقوقًا، مثل الحرية الشخصية، وحرية العقيدة، وحق المساواة، وحق التعلم، وحق الحياة، وحق الأخوة. وكما منحه كثيراً من الحقوق فرض عليه كثيراً من الواجبات الدينية التى تتعلق بالدين، والواجبات الإنسانية التى تتصل بالحياة. وأمر بالعدل والإحسان وبر ذوى القربى، والصدق والأمانة والوفاء، ونهى عن الظلم والغدر وحرمان الفقير، والعقوق والكذب والخيانة والسرقة والقتل والزنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

ومن العيوب المنتشرة بيننا أننا نفكر فيما لنا من حقوق، ونسعى لأخذ هذه الحقوق، ولكننا لا نؤدى ما علينا من واجبات، فنحن

نأخذ ولا نعطى، ولا نشعر بالواجب، ولا نفكر فى أدائه، ولا نحاسب أنفسنا على ما قمنا به من عمل. ويجب أن نرضى الله فى السر والعلن. وقد خاطب الله رسوله بقوله: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]

يجب أن نعمل الخير ونفكر فى الخير دائمًا، ونقوم بما علينا من واجبات لله والوطن والأسرة والجيران والإنسانية.

ولكى يستعيد المسلمون مجدهم الماضى، وعظمتهم السالفة، يجب أن يتمسكوا بروح الإسلام، ومبادئه المثالية، وأخلاقه الكريمة، ويعودوا إلى إيمانهم القوى بالله، ويكونوا يدًا واحدة، ووحدة قوية متماسكة متعاونة ضد المستعمرين والمحتلين، ويتركوا المظاهر الكاذبة، ويدافعوا عن بلادهم، متحدين بقلوبهم وأعمالهم، ويبتعدوا عن الخلاف والنزاع والشقاق والرياء والملق والنفاق، والجرى وراء الحكم والجاه والسلطان.

عندئذ سينتصرون على الأعداء المغتصبين، ولن يستطيع الاستعمار أن يقف فى سبيلهم مهما يكن عدده وأسلحته، وسيكون النصر حليفهم، كما كان حليفًا لأجدادهم من المؤمنين السابقين الأولين[1]

(١) عظمة الإسلام: ص ٢٥٠ وما بعدها

ولعل تعبير بعض الغربيين المنصفين خير دليل على ذلك :

يقول الفيلسوف الكبير «أرنست رينان» فى كتابه (تاريخ الأديان) : «من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبه وكل شىء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها ، كما أنه من الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والصناعية ولكن يستحيل أن يضمحل التدين ويتلاشى ، بل سيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة ضد عقيدة المادى الذى يود أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الأرضية»[١]

وصرح «ويكتور لوزان» وقال : «إن الشعوب والملل أحوج إلى المبادئ الدينية منها إلى القوانين الدنيوية»

وقال جان جاك روسو شاعر وفيلسوف فرنسا بكل جرأة : «إن أسوأ البلاد بلد أصبح الخالق فيها مجهولا وترك الإيمان به فى إهمال»[٢]

ويقول أفلاطون : «إن الرذيلة هى أكبر شر يخافه الناس وإن الفضيلة هى أكبر خير يناله»[٣]

---

(١) الدين : محمد عبدالله دراز ـ ص ٨٧ .

(٢) الأخلاق فى الإسلام : أبوالنصر الطرازى الحسنى ـ ص ١٩ .

(٣) دور التربية الأخلاقية الإسلامية فى بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية ـ د. مقداد يالجن ـ ص ٧٩ .

الفرد هو أساس النهضة

إن الأمة مجموعة متماسكة من الأفراد، وكلما كان الفرد سليمًا كان بناء الأمة سليمًا، وكلما كانت أخلاق الأمة قوية نقية كانت اتجاهاتها سليمة وهدفها مستقيمًا.

ولعل الإسلام هو أوفى الأديان والشرائع عناية بتوازن القوى المختلفة فى المجتمع، وبناء الأمم بناء متراصًا لا وهن فيه ولا ثغرة ولا اختلال.. إنك لتراه يعنى بتنظيم حياة الناس المادية كأتم ما تعنى بذلك المذاهب الاقتصادية، ويهتم بتقويم الأخلاق الاجتماعية كأقوى ما تهتم بذلك الدعوات الأخلاقية، ويبالغ فى تطهير الروح وتهذيب النفس أشد مما تبالغ فى ذلك الأديان الروحية... هو يربط بين هذه بعضها مع بعض، ويشد بعضها إلى بعض، لترى المسلم الحق قويًا فى كل ناحية من نواحى الحياة: قويًا فى روحه، وقويًا فى خلقه، وقويًا فى جسمه، وقويًا فى كل ما يعطيه لفظ القوة من دلالة، وما أروع قوله ـ ﷺ ـ: **«المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف فى كل خير»**[1]

وما لاشك فيه أننا نعانى فى حياتنا الحاضرة أمراضا اجتماعية خطيرة، لن تستقيم معها نهضة ولن يطرد بها سير، وهى مختلفة

(١) صحيح مسلم.

المظاهر فى الفرد والأسرة والجماهير، وهى تشمل فئات الناس جميعا من عالم وجاهل، وكبير وصغير، ومدنى وقروى[1]

فالفرد هو الخلية الأولى فى بناء المجتمع، والدعوات الإصلاحية تبدأ طريقها من الفرد لا من الجمهور. . إن إصلاح عشرة من الأفراد فى بلدة إصلاحًا يجعلهم أئمة فى الهدى والخير والاستقامة، هو هو الذى يؤدى إلى استقامة شئون البلدة ونظافة حياتها الاجتماعية. . . ورسول الله ﷺ ظل فى مكة ثلاثة عشر عامًا يعنى بتربية أفراد من أمته، حتى إذا اجتمع له منهم عشرات شرع فى بناء الدولة الصالحة والحضارة الصالحة. . إن أبا بكر وعمر وعلى وابن مسعود وأمثالهم هم الذين أقاموا صرح الدولة الإسلامية والحضارة العربية المؤمنة المشرقة، وهم هم الذين كان يجتمع إليهم رسول الله فى شعاب مكة وفى دار الأرقم وفى فناء الكعبة، يقوى أرواحهم، ويصقل نفوسهم، ويهذب أخلاقهم، حتى إذا مضى لربه كان لهم فى التاريخ شأن وأى شأن، وكان لهم فى هداية الإنسانية نصيب وأى نصيب.

والذين صنعوا الدولة وأقاموا الحضارات، وهتكوا حجب الجهل، وارتادوا آفاق العلم، والذين غيروا مجرى التاريخ،

(١) أخلاقنا الاجتماعية: د. مصطفى السباعى - ص ٨ - ٩.

وأحدثوا أكبر الأثر فى حياة أمتهم أو حياة الإنسانية، هم أفراد قويت إرادتهم، واستقامت أخلاقهم، وخلت حياتهم من كثير من الآفات النفسية والخلقية القاتلة[1]

***

(١) أخلاقنا الاجتماعية: د. مصطفى السباعى ـ ص٩ ـ ١٠.

المراجـــع

١ ـ أخلاقنا الاجتماعية ـ د. مصطفى السباعى ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م.

٢ ـ الأخلاق الإسلامية ـ د. حسن الشرقاوى ـ الطبعة الأولى ـ مؤسسة المختار ـ القاهرة.

٣ ـ الأخلاق فى الإسلام ـ أ. أبو النصر مبشر الطرازى الحسينى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٨٧ م ـ القاهرة.

٤ ـ الإسلام بين أمسه وغده ـ د. محمود قاسم ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة.

٥ ـ الإسلام بين الشرق والغرب ـ على عزت بيجوفيش ـ ترجمة محمد يوسف عدس ـ دار النشر للجامعات ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٩٧ م ـ مصر.

٦ ـ الإسلام.. حضارة الغد ـ د. يوسف القرضاوى ـ مكتبة وهبة ـ الطبعة الأولى ـ ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥ م ـ القاهرة.

٧ ـ الإسلام شريكا «دراسة عن الإسلام والمسلمين» ـ فريتس شتيبات ـ ترجمة د. عبدالغفار مكاوى ـ عالم المعرفة (٣٠٢)

٨ ـ الإسلام على مفترق الطرق ـ محمد أسد ـ ترجمة د. عمر فروخ ـ دار العلم للملايين ـ ١٩٨٧ م ـ بيروت.

٩ ـ الإيمان والحياة ـ د. يوسف القرضاوى ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثالثة ـ ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م.

١٠ ـ حياة محمد ـ د. محمد حسين هيكل ـ دار المعارف ـ الطبعة الحادية والعشرون ـ القاهرة.

١١ ـ دراسات إسلامية ـ د. محمد عبد الله دراز ـ دار القلم ـ الطبعة الرابعة ـ ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م ـ الكويت.

١٢ ـ دور التربية الأخلاقية الإسلامية فى بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية ـ د. مقداد يالجن ـ دار الشروق ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م ـ بيروت.

١٣ ـ الدين ـ د. محمد عبد الله دراز ـ دار القلم ـ ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م ـ الكويت.

١٤ ـ سنن أبى داود ـ الإمام أبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى ـ دار الحديث ـ ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م ـ القاهرة.

١٥ ـ سنن ابن ماجة ـ ابن عبد الله بن يزيد القزوينى ـ دار إحياء الكتب العربية .

١٦ ـ صحيح مسلم ـ الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابورى ـ دار الحديث ـ الطبعة الأولى ـ ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٩ م ـ القاهرة .

١٧ ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى ـ الحافظ ابن حجر العسقلانى ـ دار الريان للتراث ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٧هـ١٩٨٦م ـ القاهرة .

١٨ ـ قصة الحضارة ـ ول ديورانت ـ ترجمة د . زكى نجيب محمود ـ لجنة التأليف والترجمة ـ ١٩٤٩ م ـ القاهرة .

١٩ ـ الله ـ عباس محمود العقاد ـ دار الهلال ـ العدد ٢٠٧ ـ ١٩٦٨م ـ القاهرة .

٢٠ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ أبو الحسن الندوى ـ مكتبة الدعوة ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .

٢١ ـ مباهج الفلسفة ـ ول ديورانت ـ الترجمة العربية

٢٢ ـ مسند الإمام أحمد ـ الإمام أحمد بن حنبل ـ دار الفكر ـ بيروت .

٢٣ ـ مقدمة لتاريخ الفكر العلمى فى الإسلام ـ د. محمد سليم سعيدان ـ عالم المعرفة (١٣١) ـ الكويت.

٢٤ ـ من روائع حضارتنا ـ د. مصطفى السباعى ـ دار الوراق ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م.

٢٥ ـ نحو مشروع حضارى لنهضة العالم الإسلامى ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ العدد ٥٠ ـ ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩م ـ القاهرة.

٢٦ ـ هذا إسلامنا ـ د. محمد عمارة ـ دار الوفاء ـ الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠ م ـ المنصورة.